كلمة تلامذة الفقيدة

ألقاها ابن شقيقها المهندس عامر الصباغ

أشتاق إليك

أدخل إلى بيتك الأليف الخالي منك فتتمثلين لي هاشَّة باشَّة كعادتك، وأسمعك تستقبلينني بعبارات الترحيب والسؤال عن الكبير والصغير.

أجلس إلى جانب سريرك الفارغ مُقلبًا في أشيائك الصغيرة...

الموت ينتصر في النهاية، كدأبه دائماً، ولا يبقى لنا سوى صور جامدة تعيد إليها ذاكرتُنا الحياة بما تختزنه من وقائع وأحداث وذكريات؛ فها أنت في غرفة مكتبك وحولك الكتب التي زحمت الرفوف وفاضت فتكدست في الزوايا، أو في سريرك تقرئين تحيط بك الأوراق والكتب، أو في غرفة الجلوس تُغْنين نقاشاتنا بثقافتك الموسوعية، أو في المطبخ تعدين لنا طعام أول أيام العيد حيث تجتمع الأسرة كلها لديك، أبناء الأخ والأخت وأولادهم، في تقليد جميل حافظتِ عليه بعد وفاة جدتي؛ وما زلنا جميعنا نذكره بكثير من الحنين المشوب بالأسى على مناسبات سعيدة انقضت ولن تعود.

لست هنا للحديث عن شخصية الدكتورة ليلى الصباغ، ولست في وارد تعداد إنجازاتها ومآثرها، بل إني لا أعتبر نفسي أهلًا لإعطاء رأي غيرِ منحاز، فالعواطف والوقائع تتداخل لدي وتتشابك. ولكن اسمحوا لي أن أحدثكم عن شخصية "عمة ليلى" من وجهة نظري كشخص قريب منها من الناحية الأسرية والعاطفية.

لقد كانت جدتي فوزية وعمتي ليلى جزءًا أصيلًا من عائلتنا الصغيرة، وكان والدي يحرص على زيارتهما يومياً، وقد استمر بعد وفاة جدتي في زيارة عمتي كل يوم إلى أن أقعده

المرض، فتسلّمنا منه الراية. كانتا حاضرتين في جميع مناسباتنا، فلا طعم لأي جلسة من دونهما، ولا تحلو أية نزهة إلا بصحبتهما؛ وقد ارتبطت عمتي بأمها بوشائج غير عادية، إذ كانت لها الصديقة والرفيقة والصدر الحاني الذي تلقي عليه برأسها، فكان رحيلُها صدمةً قوية لها ووجدت صعوبة بالغة في التغلب على ألم الفراق.

أمضت عمتي ليلى سني طفولتها الأولى في بيت جدها لأمها أحمد الأبرش حيث انتقلت أمها للعيش مع أولادها الثلاثة حياة وفيصل وليلى بعد وفاة زوجها في رحلة الحج. وقد أغدق الجدّ عليها حبه ورعايته، إذ كان يشعر بحنان غامر نحو تلك الطفلة الشقراء، الزرقاء العينين، التي لم ترَ أباها قطّ. وتذكر عمتي أنها كانت ذات حظوة لديه، وكان يأخذها في حضنه ويغطيها بعباءته عندما يبدأ أولاد الأسرة الأكبرون سنًّا في مضايقتها، فلا يجرؤ أحد على الاقتراب منها. لم يكن جو العلم بعيدًا عن عائلة أحمد الأبرش، فابنه علي الأبرش كان طبيبًا تخرَّج في مدرسة الطب التي أنشأتها الدولة العثمانية في دمشق عام ١٩٠٣ والتي كانت تدرس العلوم الطبية باللغة التركية قبل انتقالها إلى بيروت في العام ١٩١٥. وقد كان لوفاة هذا الجد الذي كانت تدعوه "أبي" وهي في العاشرة من عمرها وقعٌ بالغ الأثر في نفس ليلى الطفلة التي عادت مع أمها وأخيها (وكانت أختها حياة قد تزوجت) للعيش في بيتهم المستقل، حيث كان على الأم أن تؤدي مجدَّدًا دور الأم والأب، فجاهدت وأعطت، هي الأُمِّيَّة التي لا تعرف القراءة والكتابة، حتى وصل ولداها إلى أعلى المراتب العلمية والمهنية. فوفرت لهم الجو والوقت والدراسة وتحملت الأعمال المنزلية وحدها دون مساعدة. وخلافًا لوالدي الدكتور فيصل الصباغ الذي كان ذا طبيعة تميل إلى المرح والدعابة والرغبة في التمتع برفاهية الحياة، اتّصفت عمتي ليلى بالجدّية، جدّية إنسانة نذرت نفسها كلّية للعلم ولا شيء غيره.

كانت الساعات تنقضي وهي جالسة بين أكداس الأوراق والكتب تبحث وتنقّب وتكتب بدأب لا يعرف الكلال. وقد أكسبها إهابُ الجدّية والحزم هذا مهابةً كبيرة جعلتنا نحن، أولاد شقيقها وشقيقتها، نحرص في صغرنا على ألاّ يبدر منا ما يثير استياءها الذي كنا ندركه من عبوس وجهها واقتضاب حديثها. ولكن خلف هذه الجدية كان ثمة بحر من المحبة والكياسة والاهتمام بأدنى تفصيل في مصلحة الشخص المخاطب، سواء أكان من أفراد العائلة أو من الطلاب أو الأصدقاء.

كان هذا يبدو لكل من قصدها في أمر ما أو مشكلة، إذ كانت تستمع إليه بعناية الأم وانتباه المعلم وصلابة المربي، موجهة الحديث باللغة العربية الفصحى كعادتها حتى في البيت. وهذا ما ترك لدى طالباتها وطلابها أثرًا عميقًا تجلى في تلك السمعة التي بلغت آذان حتى الذين لم يعاصروها، إذ كثيرًا ما امتدح معارفي عمتي ذاكرين مناقبها وسجاياها ولم يكونوا قد التَقَوا بها، بل سمعوا إخوتهم أو أخواتهم أو أمهاتهم ممن تلمذوا عندها في الثانوية أو على مقاعد الجامعة يتحدّثون عنها. كما تجلى في استمرار تواصل عدد من طلابها وطالباتها معها حتى آخر حياتها، وفي أكداسٍ من الرسائل التي يبدأ كثير منها بعبارة "أمي الحبيبة" أو "أمي الثانية".

أثار عزم عمتي على السفر إلى القاهرة، بعد نجاحها بتفوق في امتحان لاختيار طلاب للدراسة في جامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً) أثار انتقادات كثيرة في وسطها العائلي والاجتماعي في وقت كان فيه دخول الفتياتِ الجامعةَ في حد ذاته قضية خلافية، فما بالكم بسفر فتاة في الثامنة عشرة من العمر بمفردها؟ غير أن الصبية الطموحة تحدّت، بكل عنفوان شخصيتها، تلك الأعراف التي كانت تكبِّل انطلاق المرأة إلى ميادين العلم والعمل، وسافرت بتشجيع من أخيها ووالدتها التي حباها الله عقلًا منفتحًا وذهنًا متنورًا.

كان لدراستها في القاهرة، التي كانت في أربعينيّات القرن الماضي منارة للأدب والفكر والفن، والاحتكاك في جامعتها العريقة بنخبة من أهرام الثقافة والعلم، دورٌ كبير في بناء شخصيتها الشَّغُوفة بالتعلّم والمعرفة، كما كان لإقامتها في بيت الطالبات دور في إثراء فكرها التنظيمي وحبها للانضباط، اللذين تجليا فيما بعد في إدارتها لثانويتي البنات الأولى والثانية.

كما تأثرت بالحركة النسائية المصرية وفكرة المساواة بين الرجل والمرأة؛ فتخلت عن اللباس الذي كانت تفرضه الأعراف والتقاليد آنذاك ودفعتها استقلاليتها إلى اقتناء سيارة وتعلم القيادة، فكانت من النساء القلائل اللواتي قُدْنَ سيارة في ذلك الوقت.

لم تنتمِ عمتي ليلى إلى أي حزب سياسي، ولكنها عاشت نهضة القومية العربية وصعود الفكر الناصري الوحدوي، فآمنت به بشدة وظلت متمسّكة بالفكر القومي حتى النهاية.

ولطالما رددت أن ذهابها إلى الجزائر أستاذةً مُعارةً لمادة التاريخ، لم يكن بدافع الكسب المادي بقدر ما كان رغبة منها في المشاركة فيما اعتبرته واجبًا مقدسًا في استعادة الوجه الثقافي العربي للجزائر، وهو ما هدفت إليه الحكومة الجزائرية من الاستعانة بالمدرسين العرب آنذاك.

وقد عملت على ترسيخ الشعور القومي هذا في نفوس طالباتها في المدرسة الثانوية، وكانت تحثهن على المشاركة في المظاهرات التي خرجت مستنكرة العدوان الثلاثي على مصر، أو مطالبة باستقلال الجزائر، أو مؤيدة للوحدة مع مصر. وقد ظلت على إيمانها بالأفكار الوحدوية بعد إخفاق الوحدة مع مصر، ودافعت عن قناعاتها بشجاعة وإخلاص مما أثار حفيظة سلطات الانفصال وقتها، وانتهى الأمر إلى عزلها عن إدارة ثانوية البنات الأولى.

ومع أنَّ عمتي تنقَّلت بين مناصبَ شتى، فإن حبها الأكبر بقي للعمل التربوي، للإدارة والتدريس. وكثيرًا ما كانت الذكريات تحملها إلى تلك الأوقات السعيدة فتحكي لنا بفيض من الحنين عن تلك الحقبة التي كانت فيها مديرة لثانويتي البنات الأولى والثانية، كانت تغادر بيتها متّجهة إلى المدرسة قبل شروق الشمس ولا تعود إلا بعد المغيب، واقفةً جهدَها وكلَّ وقتِها لتطوير العملية التربوية، برفد المدرسة بالنشاطات المختلفة، حيث اقتنت ما يلزم من أدوات وأجهزة رياضية وآلات موسيقية حتى البيانو، إضافة إلى الإذاعة المدرسية ومجلة الحائط والمكتبة والمخبر والرحلات المدرسية حتى إلى أوربا، وكلها تعد من الأشياء الجديدة في المدارس السورية. وإن المرء ليعجب حين يرى لديها هذا العدد من الصناديق الملأى بعشرات الدفاتر والمذكرات المكتوبة بخط اليد فيما يتعلق بالمناهج والمدرسات والطالبات والنشاطات المدرسية وجداول مرسومة ومنظمة بدقة فائقة.

كانت تجتمع في مطلع العام الدراسي بكل طالبة على انفراد لتتعرف وضعَها من الناحية المادية والعائلية، وما لديها من ظروف تعيق دراستها، وتجتمع بالأولياء دوريًّا لإطلاعهم على وضع بناتهم الدراسي. وقد استطاعت أن تكسب ثقة الأهالي حتى إن أكثرهم محافظة وتشددًا كانوا يسمحون لبناتهم بالذهاب في رحلات بعيدة ما دُمْنَ في عهدة ليلى الصباغ.

وقد أمضت في مصر عامًا بين ١٩٥٨ و ١٩٥٩ موفدة للاطّلاع على النظم الإدارية المصرية، فجالت في المدن المصرية وزارات عددًا كبيرًا من المدارس وعادت بحصيلة كبيرة عملت على تطبيق الكثير منها.

وقد حلمت بإنشاء مدرسة وفق معاييرها واشترت الأرض اللازمة ولكن لم يقدر لمشروعها أن يرى النور.

وكان انتخابها لعضوية مجمع اللغة العربية عام ٢٠٠٠ علامة فارقة في حياتها، كأول امرأة سورية تنال عضوية مجمع الخالدين، وقد تَوَّجت هذه العضويةُ سنواتِ عطائها في مجال البحث والتأليف والكتابة.

عمتي الحبيبة

لقد غمرتِنا بحب كبير، حب ظل مَعينُه يتجدد فغمر كذلك أولادَنا وأحفادنا.

كنتِ لنا المثل والقدوة

وزرعتِ فينا علمًا وخلقًا

فقد حملتِ العلم كرسالة، وكانت الأخلاق جزءًا منك

وحين أفكر في كل ما علمتنا إياه، وفي الفخر الذي جعلتنا نحس به، أشعر نحوك بِعِرفانٍ للجميل عظيم. لم يكن هناك مثيل لعطائك

ولا نظير لهذا التفاني والإخلاص والشعور بالمسؤولية

كنتِ شخصًا استثنائيًّا.. بعلمكِ وثقافتك..

بتلك الاستقامة والترفّع والسلوك الرصين

بذلك الخلق واللطف ودماثة الطبع

بذلك الأدب الذي لم تُسمع معه كلمةٌ نابية تصدر عنك مرة أو شتيمة

بذلك الاجتهاد والتصميم والدأب الذي لم يتسرّب إليه الوهن

وذلك التواضع الجمّ الذي جعلك مُقِلّة في الحديث عن نفسك وعن إنجازاتك، وجعلكِ تشعرين بالخجل كطفلة عند سماع المديح.

بتلك الثقة بالنفس والشجاعة في التمسك بالمبادئ

إذ لم تنافقي، ولم تتملّقي

لم تتسامحي مع الخطأ، ولم تساومي

ولم تخشي في الحق لومة لائم.

وقد أحسستِ بالغربة في هذا الزمان الذي تردّت فيه الأخلاق والقيم والمعايير، فآثرتِ الانسحاب. عليك رحمة الله يا عمَّة ليلى.

باسم العائلة أشكر السيدة نائب رئيس الجمهورية الدكتورة نجاح العطار على مواساتها.

كما أشكر السيدة وزيرة الثقافة الدكتورة لبانة مشوِّح، ورئيس وأعضاء مجمع اللغة العربية، والسادة أصحاب الكلمات والحضور الكريم.

من آثار الفقيدة ومؤلفاتها

- المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني.
- تاريخ العرب الحديث والمعاصر.
- معالم تاريخ أوربا في العصر الحديث.
- نساء ورجال في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع.
- من الأدب النسائي المعاصر العربي والغربي.
- المرأة في التاريخ العربي : العصر الجاهلي.